خبط عشواء
وفي منتهى الدقة!

لا نكتشف اميركا حين نقول ان الهجرة اليهودية الى بلادنا كانت دائما وابدا اقنوما مقدسا لدى الصهيونية فكرا وممارسة.

ومع ذلك فاننا قادرون قادرون على اكتشاف كثير من الاثارة في ملابسات هذه الهجرة ومضاعفاتها.

فمن الملفت للنظر ان العرب والفلسطينيين اصحاب الشأن المباشر بشكل خاص، تعاملوا مع مسألة الهجرة بكثير من الحذر دون ان ينزلقوا الى مستنقع العنصرية.

ومن اشد اخبار هذه الحقيقة طرافة، تلك الحادثة التي وقعت لشاعر عربي كبير زار فلسطين قبل النكبة والتقى نفرا من عربها ويهودها فجاشت نفسه بقصيدة ساذجة جاء فيها:

واني أرى العُربي للعُرب ينتمي
قريبا من العبري ينمى الى العبرِ

ونرى في هذا ان شاعرنا اكتفى بالجانب الجناسي اللفظي: اما الشاعر الفلسطيني غير المسموح له باللعب البلاغي، فقد رد على زميله القادم

من قطر آخر:

اجل عابر الأردن كان ابن عمنا

ولكننا نرتاب في عابر البحرِ

ولكم كان من حق الفلسطيني ان يرتاب "في عابر البحر" الذي لا ينتهي عبوره الا بانتهاء الارض التي يقف عليها الفلسطيني. فعابر البحر هذا ليس مجرد سائح اجتذبه جمال البلاد ومناخها السلس. انه مستوطن جاء ليقتلع ولينزرع. وبهذا فأنه يصبح موضع ريبة مبررة على المستويين التاريخي والجغرافي ..

بالمقابل فاننا نلاحظ كيف ان "الهجرة اليهودية" تحول قادة اسرائيل الى معادل لتلك المخلوقات التي ما ان تشم رائحة الدم حتى تصاب بما يشبه لوثة الجنون.

والا، فكيف نفسر تصريح اسحق شمير الأخير عن "ارض اسرائيل الكبرى لشعب اسرائيل الكبير"، في غمرة الانتفاضة الفلسطينية وفي المناخ السياسي الدولي الراهن؟

ومن الامور المروعة ان قادة اسرائيل لم يتورعوا عن ممارسة التمييز العنصري ضد اليهود انفسهم، حين اعلنوا في اكثر من مناسبة انهم معنيون بهجرة يهودية من الاقطار المتطورة، اي من اوروبا، بمعنى انهم لا يريدون لاسرائيل حقا، وكما يدعون، ان تكون دولة كل اليهود، بل دولة لليهود الاوروبيين. يريدونها دولة النخبة اليهودية. وما اهتمامهم باليهود الفلاشا الا ستارا من الدخان لاخفاء النية الحقيقية التي تحرك مخططاتهم الاساسية. ثم ان تأكيدهم على الهجرة الاوروبية هو محاولة مستميتة لصيانة الطابع "الغربي"

لاسرائيل علما بأن يهودها الشرقيين اصبحوا اكثر عددا بتوالدهم غير المتناسب مع الهجرة الغربية المرجوة لدى هؤلاء القادة.

ومن المفارقات المضحكة حقا ان يهود اميركا مثلا، يأتون للتضامن مع اسرائيل، ويتخذون بأغلبيتهم موقفا مؤيدا لها بلا تحفظ، ومع ذلك فانهم يتشبثون بأمريكيتهم ويرفضون الهجرة بينما يتجندون بكل طاقاتهم من اجل هجرة اليهود السوفييت الى بلادنا.

وحين اعرب بعض العرب في اسرائيل عن قلقهم من الهجرة اليهودية التي ستكون على حسابنا في اي حساب، فقد هاج بعض المسؤولين وماجوا مطالبين بتجريد هؤلاء العرب من الجنسية الاسرائيلية. هؤلاء المسؤولون يريدوننا ان نحب الهجرة وان نرحب بها، ويؤكدون مرة اخرى ما قاله الباحث الاسرائيلي يوحنان بيرس عن مناهج التدريس العربية في بلادنا، من ان هذه المناهج "تسعى لاقناع الطالب العربي بأن يحب هذه البلاد لانها كانت دائما عزيزة على قلوب .. اليهود!!".

وللخنزير ايضا علاقة هامة بالهجرة اليهودية، لا سيما تلك القادمة من الاتحاد السوفييتي.

فحين اعلنت بعض الاوساط الحكومية عن استعدادها لحظر مزارع تربية الخنازير في بلادنا، اكراما للأصوليين اليهود اصحاب الباع والذراع في السياسة الاسرائيلية الراهنة، فقد تصدى لهم اصحاب هذه المزارع باسم الهجرة اليهودية، فالمهاجرون اليهود من الاتحاد السوفييتي يحبون لحم الخنزير، واذا ما حظر هذا اللحم في اسرائيل فان هؤلاء اليهود سيكفون عن الهجرة، وسيتزعزع المشروع القومي الصهيوني. وهكذا فمزارعو الخنازير لا يهمهم الربح الخنازيري!! الذي يهمهم حقا هو الهجرة اليهودية التي يشكل الخنزير احد عواملها

التاريخية الهامة!!

ويستطيع القادرون على الضحك ان يضحكوا.

ويستطيع القادرون على البكاء ان يبكوا.

أما أنا فلا استطيع الضحك ولا البكاء .. وذلك هو الحال الاسوأ، بخنازير وبدون خنازير.

وانها لدنيا.. دنيا خبط عشواء.. وفي منتهى الدقة..

«العربي» ١٣/٤/١٩٩٠